جوانب من تاريخ سكن يهود المغرب
تجاذب العزل والاختلاط

محمد باكـــوري[1]

عاش اليهود وسط المسلمين عبر مختلف الحقب الإسلامية، ولم يقف المؤرخون المسلمون على كون هذه الظاهرة تستحق الانتباه، لكون ازدهار الإسلام وموت العديد من المسلمين في سبيل نصرته واختلافهم عمن اختار النار في الآخرة، أبعدهم عن الخوف من التأثيرات الدينية المخالفة. كما أن الحكام المسلمين سمحوا للكتابيين بالعيش في المدن وأحياء المسلمين لتكون عندهم فكرة عن الدين الإسلامي، ترغيبا لهم في اعتناقه[2].

وبالمقابل فضل اليهود العيش في أرض الإسلام لكونها لا تتوفر على علامات دينية خارج المساجد، من صور وتماثيل، يمكن أن تستفز مشاعر اليهودي في حياته اليومية. كما لم يصدر أي تشريع في ديانتهم يحثهم على عدم الاختلاط بالمسلمين[3].

ما قبل الملاح

والحال أن الناس الذين كانوا يمارسون نفس الحرف في المدن الإسلامية، زاولوا أنشطتهم ضمن مجموعات اثنية تشغل دروبا تمارس فيها عملها، لكن هذا الانعزال

[1]- باحث في التاريخ، الدار البيضاء.

[2]- David corcos, Studies in the history of the Jews of moroccos , Jerusalem, 1976, pp.64-65

[3]- Antoine Fattal, le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam , imprimerie catholique,Bayrout1958. p. 93

كـان يـذوب مـع مـرور الـزمن، نتيجـة الاحتكاكـات اليوميـة المسـتمرة. ولنـا فـي حالـة مدينة فاس نموذجا لهذه الظاهرة، حيث لمـا اشـترى المـولى إدريـس موضـعا وشـرع فـي بنائهـا، قصـدها خلـق كثيـر مـن اليهـود، فـأنزلهم بناحيـة وغـلان إلـى بـاب حصـن سـعدون، فغرسـوا البسـاتين وبنـوا الديـــار والحوانيـت والربـاع، ثـم رتـبهم أحسـن ترتيب في الإسكان وتعمير الأسواق والاحتراف بالحرف التي تقوم بها المدينة[4] وهذا يعنـي أنـه أسـكنهم بأمـاكن خاصـة، ربمـا لتخوفـه ممـا يمكـن أن يـنجم عـن الاحتكـاك المباشر بين المسلمين وبين الذين يرون فيهم صور الكفار. ولم يكتف بذلك بل تـدخل حتى في ترتيبهم علـى المستوى التجـاري والحـرف علـى أسـاس التمييـز بيـنهم وبـين المسلمين. لكن مع مرور الوقت ذاب الاختلاف وحل الاختلاط، حيث لمـا عـزم علـي بن يوسـف بن تاشفين علـى الزيـادة فـي جامع القرويين كانـت الأرض التـي اشـتريت من ديار اليهود[5]. وإذا كان هذا التطور يفسر عيشهم وسط المسلمين دون تمييز، فـإن حالة مراكش شـدت علـى القاعدة فـي المغـرب، إذ كـان اليهـود يتجمعـون فـي أغمـات أيـلان، بعـد أن مـنعهم نفس الأميـر مـن الاسـتقرار بالعاصـمة، أو إمضـاء الليـل بهـا. وكـان يسـمح لهـم بمغـادرة مـدينتهم صـباحا، حتـى يبـاح لهـم الـدخول إلـى مـراكش، والرجوع إلى سكناهم في العشي، ومن تأخر منهم يباح قتله وأخذ أغراضه[6]. لا نعلـم السبب الحقيقي الذي جعله يتخذ هذا الموقف. وهل كـان ذلـك نابعـا مـن رأي الفقهـاء المتعصبين الذين كان مقرهم إلى جوار الأمير، أم محاولـة لجعل المدينـة خاليـة مـن غيـر المسـلمين ليصـبح لهـا وضـعا خاصـا، أم كـان يهـدف إلـى كسـر سـيطرتهم علـى مقاليد التجارة هناك، كما يرى الأستاذ إبراهيم حركات[7].

[4] ـ مجهول، ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين ، م.خ.ع، ص,467
[5] ـ ابن ابي زرع ,الأنيس المطرب بروض القرطاس ,ص:59
[6] ـ ابراهيم حركات ،المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء ،1965، ج:1، ص:233
[7] ـ نفسه، نفس الصفحة

المهم أن هذا الوضع لم يكن شاذا، إذ عُرفت مدن في الغرب الإسلامي إلى غاية القرن الخامس عشر بخلوها من غير المسلمين، كما هو الحال ببجاية وقفصة وتيبسة والقيروان[8].

وبمجيء العهد الموحدي تمت مضايقة اليهود، وأجبر الكثير منهم على اعتناق الإسلام. فكان ذلك الزمن هو الاستثناء الذي شد عن قاعدة التسامح التي عرفت بها أرض المغرب، وبانقضائه رجعت الأمور إلى نصابها، فوقع الإختلاط بالمسلمين من جديد، حيث ورد في كتاب المعيار للونشريسي ما يؤكد ذلك، إذ ذكر أن القابسي منع أحد اليهود المقربين من السلطان من رفع بناء منزله[9]. وهذا الوضع تقتضيه قواعد الشرع وفق ما جاء في الحديث الشريف "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه[10]. وفي حالات يستطيع اليهودي شراء منزل في حي من أحياء المسلمين[11]. وقد يقيم اليهودي في المدينة والبادية في آن واحد، بناء على ما جاء في مسألة قدمت لسيدي قاسم العقباني عن يهود سكنوا البادية ويتاجرون في أنواع المتاجر، وبعضهم سكن الحاضرة وقد تطول إقامتهم في البادية، فهل تؤخذ منهم الجزية ؟ أو تؤخذ من الساكنين فقط ؟ فأجاب ضربت عليه الجزية، يعني اليهودي، كان بالحاضرة أم بالبادية[12].

وإذا كان الاختلاط قد بدا ملموسا في العهد المريني، فإن العزل في ملاح فاس بفاس الجديد في النصف الأول من القرن الخامس عشر، أثار الانتباه إلى تلك الظاهرة، وتناوله المؤرخون بالدرس والتحليل.

8- Antoine Fattal,op.cit ,p.96

9- أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المغرب ...،ج : 2، ص:259

10- ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة،ج :2، ص:705

11- الونشريسي، المعيار ....، ج:7 ، ص:52.

12- نفسه،ج ،2 ، ص:253

الملاح:عزل وتسمية

تضاربت الروايات حول عزل اليهود في مدينة فاس في حي خاص انحصرت جلها بين احتلال سبتة من طرف البرتغاليين سنة 1415 حيث بدأ ينمو العداء الشديد تجاه غير المسلمين واكتشاف قبر المولى ادريس الثاني سنة 1438. فبينما يؤرخ الوزان لهذا التهجير بعهد أبي سعيد عثمان المريني 1398م -1421م[13]، يشير كوركوس إلى أن تاريخ التهجير تم بعد اكتشاف قبر المولى إدريس، حيث تحول فاس البالي إلى مكان لا يمكن أن يدخله سوى المسلمين[14]، ومن غير المستبعد أن التهجير تم عبر مراحل[15].

وفي أواسط القرن السادس عشر الميلادي، أصبح فاس الجديد يشتمل على حي إسلامي محض في ضواحي دار المخزن، وحي عسكري وتجاري معا، وحي يهودي محض[16]. إلى جوار القصر الملكي والمنازل الراقية[17]. ولتمييزه عن باقي الأحياء أصبح هذا الأخير يحمل اسم "الملاح".

قد تستوقفنا هذه التسمية التي انفرد بها المغرب[18]. ففي القرن الخامس عشر لا توجد وثيقة أو مصدر يشير إلى تداول هذه الكلمة، كما أن هناك من لم يخص بها الحي اليهودي وحده، فابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار، عندما وصف العدوتين بفاس أشار إلى حمص التي تحمل اسم "الملاح"[19]. والربي سعدية بن دنان في حديثه عن دخول أبي حسون الوطاسي إلى مدينة فاس صحبة جيش الترك لاسترجاع عرشه من السعديين، أشار إلى هذا الدخول من "ملاح "المسلمين مرورا

13- Simon levy ,Hara et Mallah :Les Mots ,L'Histoire et l'Institution ,in:Histoire et Linguistique ,C.S, N° 20,Fac des lettres, Rabat,1992, P.46

14- Corcos, op. cit, p.74

15- Levy ,o p.cit, p:46

16- روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، دار الغرب الإسلامي، لبنان ،1992،ج :1، ص:103

17- - دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، الرباط، 1988 ، ص:146 .

18- Corcos,Studies..,op.cit,p.76

19- Levy ,op.cit.P.42

بقناة صرف المياه. وكتب الزياني في الترجمان المغرب أن المولى الرشيد عندما دخل فاس الجديد سنة 1667م كان من السور المحادي لملاح المسلمين[20]. وذكر الناصري في الإستقصا أن البرتغاليين لما استولوا على مدينة سبتة، جاء أهلها إلى سلطان فاس مستصرخين له، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا فأنزلهم بملاح المسلمين[21].

وإذا رجعنا إلى الأحداث التي عرفتها فاس سنة 1465م إثر مقتل آخر سلطان مريني ونقمة الناس على اليهود ،لم يتداول المؤرخون العرب اسم "الملاح". كما أن هذه الكلمة لم تستعمل من طرف الرحالة والإخباريين الذين كانت لهم دراية بمغرب القرن السادس عشر الميلادي: نيكولاس كلينار، ديكو دي طوريس، مندوسا، المجهول البرتغالي .... فمن أجل تمييز تجمعات فاس ومراكش ومكناس وأحياء اليهود بمجموع تراب المغرب، حتى القرن التاسع عشر، كان البرتغاليون يكتبون Judaeria والإسبان Juderia والإنجليز Judaria والفرنسيين Juderie، وبعد ذلك كتب الإنجليز Jeurdery وبعدها Jeurie ثم Jury والفرنسيون Juifverie وأخيرا Juiverie[22].

التفسير الوحيد لهذا، هو أن الأوربيين اتبعوا التسمية التي كانت تعطى لأحياء اليهود بالممالك المسيحية، كما أن اليهود الذين كان بإمكانهم الاتصال بهم ينحدرون من أوربا[23].

إذن متى ظهر اسم "الملاح"؟ ومن استعمله أول مرة ؟ وما سبب إطلاق تلك التسمية على حي اليهود؟

20- Ibid

21 ـ أحمد بن خالد الناصري،"الاستقصا..." دار الكتاب ، الدار البيضاء ،1977، ج:4 ،ص:92

22- Corcos,Studies..,op.cit,p.78

23- Ibid ,p.79

حسب المؤرخ Hirschberg، ورد اسم الملاح أولى مرة في رسالة عربية مؤرخة بسنة 1541م وبعد هذا ظهر هذا الاسم الذي نعت به الحي اليهودي في نص عبري مؤرخ بسنة 1552م وفي العقود الربينية و"تكنوت" فاس، لم تكن الإشارة للحي اليهودي بهذا اللفظ، إلا نادرا، ويبدو أن اليهود المتحدثون بالعربية هم أول من استعمل اسم الملاح لتمييز الأحياء اليهودية الموجودة بالمغرب، إذ في سنة 1541م التي لم يكن فيها أول تجمع يهودي إلا بفاس، كانت الرسالة تنعت جميع الأحياء اليهودية بالمغرب بالملاح[24].

يبقى سبب إطلاق اسم الملاح على الحي اليهودي مشتتا بين عدة فرضيات: فرضية اكتشاف عين مالحة بالمكان الذي أقام به اليهود بفاس، لكن كلمة "ملاح" لا تعني العين أو الوادي، لأن الكلمة في التداول تعني المشتغل بحرفة: ملاح، كما هو حال، نجار، دباغ[25]. ومن الفرضيات الأخرى، نجد حق بيع الملح لليهود، أو تكليف اليهود بتمليح رؤوس الثوار[26]. أومن لفظ "لاح" أي المرمى، لأن اليهود قذف بهم ماء البحر بعد الهجرة القسرية من الأندلس (الماء لاح). ينفلت من بين أيدينا الحسم ويبقى اللغز قائما.

وقبل "الملاح" كان اسم الحي اليهودي بالمغرب هو "حارة" تماشيا مع نفس التسمية المنطوق بها في جهات مختلفة من المغارب. وفي اسبانيا الإسلامية كان الاسم هو "ربد اليهود". لكن كلمة "حارة" رافقتها إيحاءات قدحية، فلدرء تبعات عين السوء، يقول أهل فاس "عين اجار و اجارة / والساكن في الحارة"، وفي المخيال اليهودي المغربي ارتبطت بالمكان النائي[27] وفي اللسان الدارج المغربي توحي بالمكان المشؤوم "سير الحارة".

[24]- Ibid ,p.78

[25]- Levy ,op.cit.p.47

[26]- أحمد شحلان، مدن مغربية في كتابات عبرية صفرو ومكناس ودبدو، متنوعات محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ص:268 .

[27]- Levy ,op.cit.p.44

لا نعلم إن كانت لهذا الإسم نفس الصورة السلبية في تداوله بمختلف جهات المغرب، إلا أنه في مطلع القرن العشرين أصبح يشير في مراكش إلى الحي المعزول الذي يأوي المصابين بالجدام[28].

ومهما يكن من أمر، فإن "الملاح" لم يحمل تلك الصورة الدونية التي رافقت لفظ الحارة، بل تمكن اليهود داخل أسواره من بناء المدارس والبيع، الشيء الذي لم يكن متاحا لهم في أحياء المسلمين، كما أصبحوا يمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية، ناهيك عن ما وفره لهم الملاح بأسواره العالية من أمن في زمن الاضطرابات.

الملاح: منحى الإنتشار

في العهد السعدي بني ملاح مراكش على عهد السلطان عبد الله الغالب، بعد أن تجاوز عددهم حوالي 6000 نسمة في حيين مختلفين، فأمر بتجميعهم في حي واحد[29]. وفي رواية أخرى، شيد الملاح هناك إثر أزمة انفجرت بسبب ادعاء مسلمة الاعتداء عليها من طرف يهودي[30]. وأصبحت دور "الملاح" وقتذاك تستخدم كسكنى لشخصيات أجنبية وكفنادق[31] لإيواء السفراء الأجانب.

وماعدا العاصمتين فاس ومراكش، تشير كتب الرحلات، خلال القرن السادس عشر، إلى عيش اليهود في أماكن متفرقة من المغرب، في الغالب وسط المسلمين.

وعلى عهد المولى اسماعيل، أخرج السلطان اليهود من مكناسة، ليبني لهم خارجها وأخلت ديارهم، فطولب أهل تافيلالت الذين بفاس بسكناها، فلم يزالوا يخرجون ويسكنون بالكراء وضاقت عليهم المنازل[32] قد يكون تكاثر عددهم بفعل الهجرات اليهودية من فاس وصفرو وزاوية الدلاء سببا في تجميعهم في حي خاص

---

[28]- Ibid, p.44

[29]- مارمول، افرقيا، ج:2، ص:55.

[30]- Corcos,Studies..,op.cit,p.84

[31]- Ibid

[32]- محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف ،تحقيق :أحمد العماري، دار المؤثرات، الرباط، 1986 ،ص :64

بهم سنة 1682م تحت اسم "الملاح"[33] ويمكن أن تكون هناك أسباب أخرى لا نعلمها.

إلى الآن لمسنا أن عزل اليهود في أحياء خاصة لم يكن سوى في عواصم المغرب. لكن مغرب القرن التاسع عشر سيعرف في بداياته ظروفا اقتصادية وسياسية عصيبة: اشتداد الغلاء، انتشار الفكر الوهابي، العداء لغير المسلم، الخوف من الغزو الأجنبي[34] إضافة إلى تكاثر أعداد الساكنة اليهودية في المدن الساحلية[35]. وبمقتضى هذا الوضع، وضمن اجراءات استثنائية اتخذها المولى سليمان، تم إنشاء ملاح الرباط وسلا وتطوان سنة 1808م[36]. إلا أن التجميع في الملاحات الآنفة الذكر، رافقه عطف سلطاني، حيث يقول الضعيف "ثم جاء أمر السلطان لأهل الرباط ولأهل سلا على أن اليهود يخرجون من ملاح سلا وملاح الرباط ويبنون ملاحا آخر في طرف المدينة، ولايبقوا مختلطين بديارهم ديار المسلمين، وعين ليهود الرباط، الجنانات الذين بحومة وقاصة، واشترى الأرض من عنده وحبسها على اليهود، فأقلعوا الكرم والدوالي والبرقوق والأجاص. وفي متم جمادى الأولى طلع المعلم الحسن السوداني وفصل لهم الملاح بحومة وقاصة المذكورة، وصارت اليهود تبني الديار والأفران والطواحين والحوانيت[37].

ما يثير الإنتباه في قول الضعيف، الذي عاصر الحدث،هو أن السلطان اشترى الأرض من ماله الخاص وجعلها وقفا على اليهود باعتبارهم من رعاياه، وأن هذه الأرض الغنية بالمغارس لم تشفع لها منتجاتها في البحث عن غيرها، بل حولت إلى ملاح يهودي بمرافقه الأساسية، ربما لجبر الضرر الذي لحق باليهود، أو لعزلهم من أجل تنظيم شؤونهم وممارسة عقائدهم بكل حرية. إلا أن ذات القرن بدأ المغرب فيه

---

33 - Levy ,op.cit ,p.43

34- Ibid

35- دانييل شروتر، تجار الصويرة، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997، ص:50

36- Levy ,op.cit,p:43

37- الضعيف، م.س، ص:344

يخضع لعدة تحولات تنافت مع رغبات الحاكمين، نكتفي منها بما يخص اليهود، حيث استفادت البرجوازية اليهودية من تطور رأسمالي على هامش الاقتصاد التقليدي[38] وتم إعفاء اليهود الذين تمكنوا من الحصول على الحماية الأجنبية من أداء الجزية[39]. وتطلعت العديد من الأسر اليهودية إلى يهود أوربا بصفتهم مصدرا لحمايتهم، سيما بعد تحول التجار الأجانب والنواب القنصليين إلى جانب المنظمات اليهودية الأوربية إلى حكام بين أعضاء الطائفة اليهودية[40]، الشيء الذي أدى إلى تقويض نموذج الزعامة التقليدية داخل منظومة الجماعة العبرية.

كل ما سبق، ساهم في فقدان الملاح لخصوصياته التاريخية، وغدا بعد ذلك مجرد حي يقطنه فقراء اليهود، وبتضاءل عدد هؤلاء بفعل الهجرات الخارجية عوضهم في سكنه فقراء المسلمين.

إجمالا تجاذب العزل والاختلاط، لكن العزل بدأ في التلاشي لفائدة الاختلاط، إثر التشويش الذي طرأ على بنية المجتمع المغربي بفعل التغلغل الاستعماري.

---

[38]- شروتر م،س، ص،18

[39]- نفسه، ص:376

[40]- نفسه، ص:381